

## الفصل السادس عشر آثار أحد

انتصار القبائل المجاورة بالمسلمين - غزوة بني أسد - أمر الهذلي - مقتل خبيب  
وأصحابه بالرجيع - مقتل المسلمين ببئر معونة - إجلاء بني النضير عن المدينة -  
غزوة بدر الآخرة - غزوة دومة الجندل

سياسة محمد ﷺ بعد أحد:

عاد أبو سفيان من أحد إلى مكة، وقد سبقته إليها أخبار النصر، ممتلئ النفس غبطة وسروراً بما زال عن قريش من عار بدر. ولم يلبث حين بلغها أن قصد الكعبة قبل أن يدخل إلى بيته، وبها رفع إلى كبير آهتهم هُبَل آى الثناء والحمد؛ ثم حلق لئمه ورجع إلى داره موفياً نذره ألا يقربَ زوجته حتى ينتصر على محمد. أما المسلمون فألقوا المدينة وقد تنكَّر لهم الكثير من أمرها، على رغم مطاردتهم عدوهم وثباتهم له ثلاثة أيام سوياً من غير أن يجترئ على الرجعة إليهم وهو المنتصر قبل أربع وعشرين ساعة عليهم. ألقوا المدينة وقد تنكَّر لهم الكثير من أمرها وإن بقى سلطان محمد فيها السلطان الأعلى، وشعر عليه السلام بدقة الموقف وحرص المركز، لا في المدينة وحدها، بل كذلك عند قبائل العرب ممن كان الرعب منه قد داخل نفوسها؛ فقد ردَّت أحد إليها من السكينة ما سمح لها أن تفكر في معارضته ومناواته. لذلك حرص على أن يقف من أخبار أهل المدينة ومن أخبار العرب جميعاً، على ما يمكنه من استعادة مكانة المسلمين وسطوتهم وهيبتهم في النفوس.

سرية أبي سلمة بن عبد الأسد:

وكان أول ما بلغه بعد شهرين من أحد أن طليحة وسلمة ابني خويلد، وكان على رأس بني أسد، يحرضان قومها ومن أطاعها يريدان مهاجمة المدينة والسير إلى محمد في عقر داره ليصيبوا من أطرافه وليغنموا من نعم المسلمين التي ترعى الزروع المحيطة بمدنيتهم. وإنما شجعهم على ذلك اعتقادهم أن محمداً وأصحابه لا يزالون مضعفين من أثر أحد. فما لبث النبي حين اتصل به الخبر أن دعا إليه أبا سلمة بن عبد الأسد وعقد له لواء سرية تبلغ عدتها مائة وخمسين، منهم أبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وأسيد بن حضير، وأمرهم بالسير ليلاً والاستخفاء نهاراً وسلوك طريق غير مطروق حتى لا يطلع أحد على خبرهم، فيفجئوا العدو بالإغارة عليه على غرة منه، ونفذ أبو سلمة ما أمر به حتى جاء القوم ولم يستعدوا لنضال، فأحاط بهم في عمية الصبح، وحض رجاله وحرّضهم على الجهاد؛ فلم يستطع المشركون أن يشبثوا لهم، فوجه لواءين في طلبهم

وطلب الغنيمة، وأقام هو ومن معه حتى عاد المطاردون بما غنموا، فنحوا الخمس لله ورسوله وللمسكين وابن السبيل، واقتسموا الباقي ورجعوا إلى المدينة ظافرين وقد أعادوا إلى النفوس من هيبة المسلمين شيئاً مما ضيقت أحد. على أن أبا سلمة لم يعيش بعد السرية طويلاً؛ فقد كان جرح بأحد ولم يكن التام جرحه إلا ظاهراً. فلما جهد نفسه نَفَرَ الجرح<sup>(١)</sup> وظل به حتى قضى عليه.

سرية عبد الله بن أنيس:

واتصل بمحمد من بعد ذلك أن خالد بن سفيان بن نُبَيْح الهُدَلِيّ مقيم بنخلة أو بعُرنة، وأنه يجمع الناس ليفزوه، فدعا إليه عبد الله بن أنيس وبعثه يتجسس حتى يقف على جلية الخبر، وسار عبد الله حتى لقي خالدًا وهو في طَعْن يرتاد لمن منزلاً. فلما انتهى إليه سأله خالد: من الرجل؟ فأجابه: أنا رجل من العرب سمع بك وبجمعك لمحمد فجاءك لذلك. فلم يخف خالد أنه يجمع الجمع ليفزو المدينة. ولما رآه عبد الله في عزلة من الرجال وليس معه إلا أولئك النسوة استدرجه للمسير معه، حتى إذا أمكنته منه الفرصة حمل عليه بالسيف فقتله، ثم ترك طعائنه منكبات عليه يبكيه، وعاد إلى المدينة فأخبر الرسول الخبر. وهدأت بنو الحيان من هذيل بعد موت زعيمها زماناً، ثم فكرت تحتال لتأثر له.

يوم الرجيع (سنة ٦٢٥ م):

في هذا الحين وقد رهط من قبيلة تجاورهم إلى محمد يقولون له: إن فينا إسلامًا، فابعت معنا نفرًا من أصحابك يعلموننا شرائعه ويقرئوننا القرآن. وكان محمد يبعث من أصحابه كلما دُعي إلى ذلك ليؤدوا هذه المهمة الدينية السامية، وليدعوا الناس إلى الهدى ودين الحق، وليكونوا للمحمد وأصحابه عونًا على خصومهم وأعدائهم، على نحو ما رأيت من ذلك كله فيمن بعثهم إلى المدينة على أثر العقبة الكبرى. لذلك بعث ستة من كبار أصحابه خرجوا مع الرهط وساروا معهم. فلما كانوا جميعًا على ماء هذيل بالحجاز بناحية تدعى الرجيع، غدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلًا. ولم يرع المسلمون الستة وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوه؛ فأخذ المسلمون أسيافهم ليقاتلوا. لكن هذيلًا قالت لهم: إنا والله ما نريد قتلكم؛ ولكننا نريد أن نصيب لكم مكة، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم. ونظر المسلمون بعضهم إلى بعض وقد أدركوا أن الذهاب بهم إلى مكة فرأى إنما هو المذلة والهوان وما هو شر من القتل، فأبوا ما وعدت هذيل. وانبروا لقاتلها، وهم يعلمون أنهم في قلة عددهم لا يطيقونه. وقتلت هذيل ثلاثة منهم ولأن الثلاثة الباقون.

قتل زيد وخبيب:

فأمسكت بتلابيبهم وأخذتهم أسرى، وخرجت بهم إلى مكة تبعهم فيها. فلما كانوا في بعض

(١) نفر الجرح: سال منه الدم.

الطريق انتزع عبد الله بن طارق أحد المسلمين الثلاثة يده من غلِّ الأَسْر ثم أخذ سيفه؛ فاستأخِر عنه القوم وطفقوا يرمونه بالحجارة حتى قتلوه أمَّا الأسيران الآخرون فقدمت بها هذيل مكة وباعتها من أهلها. باعَت زيد بن الدثنة لصفوان بن أمية الذي استراه ليقتله نأيه أمية بن خلف؛ فدفَع به إلى مولاه نسطاس ليقتله. فلما قدَّم سألَه أبو سفيان: أُنشدك الله يا زيد، أُنحِبُّ أن محمداً الآن عندنا في مكانك تُضرب عنقه وأنت في أهلِكَ؟ قال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تُؤذيهِ وأنا جالس في أهلي! فعجب أبو سفيان وقال: ما رأيت من الناس أحداً يحبه أصحابه ما يجب أصحاب محمد محمداً. وقتل نسطاس زيدا، فذهب شهيد أمانته لدينه ولنبيه، أمَّا خبيب فحُيس حتى خرجوا به ليصلبوه؛ فقال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا؛ فأجازوه فركع ركعتين أمَّتها وأحسنها، ثم أقبل على القوم وقال: أمَّا والله لولا أن تظنوا أني إنما طرَّلت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة. ورفعوه إلى خشية؛ فلما أوثقوه إليها نظر إليهم بعين مَغْضِبَة وصاح: «اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً»؛ فأخذت القوم الرجفة من صحته، واستلقوا إلى جنوبيهم حذر أن تصيبهم لعنته، ثم قتلوه. وكذلك استشهد خبيب كما استشهد زيد في سبيل بارئه وسبيل دينه ونبيه. وكذلك ارتفع إلى السماء هذان الروحان الطاهران وكان في استطاعة صاحبيهما أن يستنقذهما من القتل إن رضيا الردة عن دينها لكنهما في يقبها بالله وبالروح وبيوم البعث، يوم تُجزى كل نفس بما كسبت ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى، رأياً الموت، وهو غاية كل حيٍّ، خير ما يكون غاية للحياة في سبيل العقيدة وفي سبيل الإيمان بالحق؛ ولكنها أمانة بأن دمها الزكي الطهور الذي أريق على أرض مكة سيدعو إليها إخوانهم المسلمين يندخلونها فاتحين يحطمون أصنامها، ويطهرونها من رجس الوثنية والشرك، ويردون فيها إلى الكعبة بيت الله ما يجب لبيت الله من تقديس وتترُّه عن أن يذكر فيه اسم غير اسم الله.

لا يقف المستشرقون من هذا الحادث وقوفهم عند أسيرى بدر اللذين قتلها المسلمون، ولا يحاولون أن يستنكروا هذا الغدر برجلين بريئين لم يؤخذا في حرب وإنما أخذوا خداعاً، وسارا بأمر الرسول ﷺ ليعلموا من غدروا بها ومن أسلموها إلى قريش بعد أن قتلوا زملاءهم غيلة وبغياً. وهم لا يستنكرون ما صنعت قريش بالرجلين الأعزليين، مع أن ما صنعتها بها شرٌّ مثل اللجين ولعدوان الدقيء. ولقد كانت أولى مبادئ الإنصاف تقتضى المستشرقين، الذين أنكروا ما فعل المسلمون بأسيرى بدر، أن يكونوا أشدَّ استنكاراً لغدر قريش وغدر الذين أسلموا إليها الرجلين لقتلهما، بعد أن قتلوا الأربعة الرجال الذين جاءوا وإياهم إجابة لطلبهم ليدلوهم على الحق ويفقهوهم في الدين.

يوم بئر معونة (سنة ٦٢٥ م):

حزن المسلمون وحزن محمد ﷺ لما أصاب أصحابهم الستة الذين استشهدوا في سبيل الله بغدر

هُذِلَ بِهِمْ، وَأُرْسِلَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ أَشْعَارَهُ يَرْتِي فِيهَا حُبِيْبًا وَزَيْدًا أَحْرًا الرَّثَاءَ. وَازْدَادَ مُحَمَّدٌ تَفْكِيرًا فِي أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ وَخَشَى إِنْ تَكَرَّرَتْ مِثْلَ هَذِهِ الْأُمُورِ أَنْ تَسْتَخْفَ الْعَرَبُ بِشَأْنِهِمْ. وَلَا شَيْءَ أَقْتَلُ لِهَيْبَتِكَ مِنْ اسْتِخْفَافِ غَيْرِكَ بِشَأْنِكَ. وَإِنَّهُ لَفِي تَفْكِيرِهِ إِذْ قَدِمَ عَلَيْهِ أَبُو بَرَاءَ عَامِرُ بْنُ مَالِكٍ مُلَاعِبَ الْأُسْنَةِ؛ فَعَرَضَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ أَنْ يُسَلِّمَ فَلَمْ يَقْبَلْ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَظْهَرِ لِلْإِسْلَامِ عِدَاوَةً، بَلْ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ لَوْ بَعَثْتَ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِكَ إِلَى أَهْلِ نَجْدٍ فَدَعَوْهُمْ إِلَى أَمْرِكَ رَجَوْتُ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ. فَخَافَ مُحَمَّدٌ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ وَخَشَى أَنْ يَغْدُرُوا بِهِمْ كَمَا غَدَرَتْ هَذِيلُ بِخَبِيْبٍ وَأَصْحَابِهِ. وَلَمْ يَقْتَتِعْ وَلَمْ يَجِبْ طَلْبَ أَبِي بَرَاءَ، حَتَّى قَالَ: أَنَا لَمْ جَارٍ، فَايَعْتَهُمْ فَلِيَدْعُوا إِلَى أَمْرِكَ. وَكَانَ أَبُو بَرَاءَ رِجُلًا مَسْمُوعَ الْكَلِمَةِ فِي قَوْمِهِ لَا يَخَافُ مِنْ أَجَارِهِ عَادِيَةً أَحَدٌ عَلَيْهِ. وَبَعَثَ مُحَمَّدُ الْمُنْذِرَ بْنَ عَمْرٍو أَخَا بَنِي سَاعِدَةَ فِي أَرْبَعِينَ رِجُلًا مِنْ خِيَارِ الْمُسْلِمِينَ. فَسَارُوا وَنَزَلُوا بِثَرْ مَعُونَةٍ بَيْنَ أَرْضِ بَنِي عَامِرٍ وَحَرَّةِ بَنِي سَلِيمٍ، وَمِنْ هُنَاكَ بَعَثُوا حَرَامَ بْنَ مِلْحَانَ إِلَى عَامِرِ بْنِ الطَّفِيلِ بِكِتَابٍ مُحَمَّدٌ فَلَمْ يَنْظُرْ عَامِرُ الْكِتَابَ بَلْ قَتَلَ الرَّجُلَ وَاسْتَصْرَخَ بَنِي عَامِرٍ كَيْ يَقْتُلُوا الْمُسْلِمِينَ. فَلَمَّا أَبَوْا أَنْ يَخْفَرُوا ذَمَّ أَبِي بَرَاءَ وَجَوَارِهِ اسْتَصْرَخَ عَامِرٌ قِبَائِلَ أُخْرَى أَجَابَتْهُ وَخَرَجَتْ مَعَهُ حَتَّى أَحَاطُوا بِالْمُسْلِمِينَ فِي رِحَالِهِمْ فَلَمَّا رَأَوْهُمُ الْمُسْلِمُونَ أَخَذُوا سِيُوفَهُمْ وَقَاتَلُوا حَتَّى قَتَلُوا عَنْ آخِرِهِمْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ إِلَّا كَعْبُ بْنُ زَيْدٍ؛ إِذْ تَرَكَ ابْنَ الطَّفِيلِ وَبِهِ رَمَقٌ، فَعَاشَ وَلَحِقَ بِالْمَدِينَةِ، وَإِلَّا عَمْرٍو وَبَنِي أُمَيَّةَ الَّذِي أَعْتَقَهُ عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ عَنْ رَقَبَةٍ زَعَمَ أَنَّهَا كَانَتْ عَلَى أُمِّهِ. وَلَقِيَ عَمْرٍو رَجُلَيْنِ فِي الطَّرِيقِ حِينَ عَوَدَتْهُ بَعْدَ انْطِلَاقِهِ، فَحَسِبَهَا مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ عَدَّوْا عَلَى أَصْحَابِهِ، فَأَمْلَهَا حَتَّى إِذَا نَامَا عَدَا عَلَيْهَا فَقَتَلَهَا، وَتَابَعَ مَسِيرَهُ حَتَّى بَلَغَ الْمَدِينَةَ، فَأَخْبَرَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَا صَنَعَ فَإِذَا الرَّجُلَانِ عَامِرِيَّانِ مِنْ قَوْمِ أَبِي بَرَاءَ، وَإِذَا مَعَهُمَا عَقْدُ جَوَارٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ اقْتِضَاهُ أَنْ يُؤَدَّى رَيْتُهَا.

#### يهود المدينة ومانفوقها:

وَجَدَ مُحَمَّدٌ ﷺ لِقَتْلِي بَنِي مَعُونَةَ أَشَدَّ الْوَجْدِ، وَحَزَنَ مِنْ أَجْلِهِمْ أَعْمَقَ الْحَزَنِ، وَقَالَ: هَذَا عَمَلُ أَبِي بَرَاءَ، لَقَدْ كُنْتُ كَارِهًا مَتَخَوِّفًا وَشَقَّ عَلَى أَبِي بَرَاءَ إِخْفَارَ عَامِرِ بْنِ الطَّفِيلِ إِيَّاهُ، حَتَّى لَقِيَ ذَهَبَ ابْنَهُ رِبِيعَةَ فَطَعَنَ عَامِرًا بِالرَّمْحِ انْتِقَامًا مِنْهُ لِأَبِيهِ. وَبَلَغَ مِنْ حَزَنِ مُحَمَّدٍ أَنَّهُ ظَلَّ شَهْرًا كَامِلًا يَدْعُو اللَّهَ بَعْدَ آدَاءِ فَرِيضَةِ الْفَجْرِ لِيَنْتَقِمَ لَهُمْ مِنْ قَتْلَتِهِمْ. وَتَأَثَّرَ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا هَذِهِ الْكَارِثَةُ الَّتِي أَصَابَتْ إِخْوَانَهُمْ فِي الدِّينِ. وَإِنْ آمَنُوا بِأَنَّهُمْ جَمِيعًا اسْتَشْهَدُوا، وَبِأَنَّهُمْ جَمِيعًا لَهُمُ الْجَنَّةُ.

وَوَجَدَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْمَنَافِقِينَ وَالْيَهُودِ فِيهَا أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ بِالرُّجُوعِ وَبَثْرَ مَعُونَةَ مَا أَعَادَ إِلَى ذَاكِرَتِهِمْ انْتِصَارَ قَرِيْشٍ بِأَحَدٍ، وَمَا أَنَسَاهُمْ نَصْرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى بَنِي أُسَدٍ، وَمَا أَضْعَفَ فِي نَفْسِهِمْ مِنْ هَيْبَةِ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ. وَفَكَّرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ تَفْكِيرٍ سِيَاسِيٍّ دَقِيقٍ النَّظْرَ بَعِيدَ الْمَرَامِي الرَّأْيِ. فَلَيْسَ شَيْءٌ أَشَدَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ يَوْمُنَا خَطْرًا مِنْ أَنْ تَضَعُفَ فِي نَفْسِ مُسَاكِنِهِمْ بِالْمَدِينَةِ هَيْبَتُهُمْ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُطْمَعُ قِبَائِلَ الْعَرَبِ فِيهِمْ مِثْلُ أَنْ تَشْعُرَ بِهَذَا الْانْقِسَامِ الدَّاخِلِيَّ يَوْشِكُ أَنْ يُثِيرَ

حرباً أهليةً إذا غزا المدينة غاز من جيرانها. ثم إنه رأى اليهود والمنافقين كأنهم يتربصون به الدوائر؛ فقدّر أن لا شيء خير من أن يستدرجهم لتتضح نياتهم. ولما كان اليهود من بني النضير حلفاء لبني عامر، فقد ذهب إلى محلّتهم على مقربة من قُباء، في عشرة من كبار المسلمين بينهم أبو بكر وعمرو وعليّ، وطلب إليهم معاونتهم في دية القتيلين اللذين قتل عمرو بن أمية خطأ، ومن غير أن يعلم أن محمداً ﷺ أجارهما.

اتّمار اليهود بمحمد ﷺ:

فلما ذكر لهم ما جاء فيه أظهروا القبظة والبشر وحسن الاستعداد لإجابته. لكنه ما لبث أثناء تبسط بعضهم معه أن رأى سائرهم يتأمرون، ويذهب أحدهم إلى ناحية، ويبدو عليهم كأنهم يذكرون مقتل كعب بن الأشرف، ويدخل أحدهم (عمرو بن جحاش بن كعب) البيت الذي كان محمد مستنداً إلى جداره. إذ ذاك رابه أمرهم، وزاده ريباً ما كان يبلغه من حديثهم عنه واتّمارهم به. لذلك ما لبث أن انسحب من مكانه تاركاً أصحابه وراءه يظنون أنه قام لبعض أمره. أمّا اليهود فقد اختلط عليهم الأمر ولم يعودوا يعرفون ما يقولون لأصحاب محمد ولا ما يصنعون بهم. فإن هم غدروا بهم فمحمد لاريب منتقم منهم شرّ انتقام. وإن هم تركوهم فلعل اتّمارهم بحياة محمد وأصحابه لا يكون قد اقتضح فيظلّ ما بينهم وبين المسلمين من عهد قاتماً. وحاولوا أن يقتعوا ضيوفهم المسلمين بما يزيل ما قد يكون رايهم من غير أن يشيروا إلى شيء منه. لكن أصحاب محمد استبطنوه فقاموا في طلبه، فلحقوا رجلاً مقبلاً من المدينة عرفوا منه أن محمداً دخلها وأنه قصد توّاً إلى المسجد فيها، فذهبوا إليه.

إنفاذه إلى بني النضير بالجلاء:

فلما ذكر لهم ما رابه من أمر اليهود ومن اعتزامهم الغدر به وتنبهوا إلى ما كانوا رأوا، آمنوا بنفاذ بصيرة الرسول وما أوحى إليه. وبعث النبي يدعو إليه محمد بن مسلمة وقال له: «أذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم: إن رسول الله أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادى لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما همتم به من الغدر بي. لقد أجلتكم عشراً، فمن رُئي بعد ذلك ضربت عنقه». وأبلىست<sup>(١)</sup> بنو النضير، فلم يجردوا لهذا الكلام دقفاً ولم يحجروا عنه جواباً إلا أن قالوا لابن مسلمة: «يا محمد، ما كنا نرى أن يأتي بهذا رجل من الأوس». وذلك إشارة إلى تحالفهم وإياهم من قبل في حرب الخزرج. فكان كلّ ما أجاب به ابن مسلمة: «تغيّرت القلوب».

ابن أبي محرز اليهود:

ومكث القوم على ذلك أياماً يتجهزون وإنهم كذلك إذ جاءهم رسولان من عند عبد الله بن أبي

(١) أبلىست: ينست وتبحرت.

يقولان: لا تخرجوا من دياركم وأموالكم، وأقيموا في حصونكم فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم. وتشاورت بنو النضير في مقالة ابن أبي وهم أشد ما يكونون حيرة؛ فمنهم من لم يكن له باين أبي أية ثقة. ألم يعد بنى قَيْنَقَاع من قبل مثل ما يعد بنى النضير اليوم، فلما جدَّ الجدَّ تخلَّى عنهم وولى مدبراً؟ وهم يعلمون أن بنى قُرَيْظَةَ لا ينصرونهم لما بينهم وبين محمد من عهد. ثم إنهم إن جلوا عن ديارهم إلى خَيْبَر أو إلى مَحَلَّة قريية، استطاعوا أن يعودوا حين يثمر نخيلهم إلى يثرب، يجنون ثمره ويعودون أدرأجهم فلا يكونون قد خسروا كثيراً. قال كبيرهم حُصَيْنُ بن أخطب: كلا بل أنا مرسل إلى محمد: إننا لا نخرج من ديارنا وأموالنا، فليصنع ما بدا له، وما علينا إلا أن نرُمَّ حصوننا ندخل إليها ما شئنا، وتدرَّب آزقتنا وتنقل الحجارة إليها، وعندنا من الطعام ما يكفيننا سنة، وماؤنا لا ينقطع، ولن يحصرنا محمد سنة كاملة. وانقضت الأيام العشرة ولم يخرجوا من ديارهم.

حصار بنى النضير:

فأخذ المسلمون السلاح وساروا إليهم فقاتلهم عشرين ليلة، وكانوا أثناءها إذا ظهروا على الدرب أو الديار تأخر اليهود إلى الديار التي من بعدها بعد تخريبهم إياها. ثم أمر محمد أصحابه أن يقطعوا نخل اليهود وأن يحرقوه حتى لا تبقى اليهود في شدة تعلقها بأموالها تتحمس للقتال وتقدم عليه. وجزع اليهود ونادوا: يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد، وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟! وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

جلاء اليهود عن المدينة:

وعيناً انتظر اليهود نصر ابن أبي أو تقدم أحد من العرب لنجدتهم، حتى لم يبق لديهم ربية في سوء مصيرهم إذا أصروا على متابعة القتال. فلما ملأ اليأس قلوبهم رعباً، سألوا محمداً أن يؤمنهم على أموالهم ودماتهم وذراريهم حتى يخرجوا من المدينة. فصالحهم محمد على أن يخرجوا منها، ولكل ثلاثة منهم يعير يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب، وليس لهم غيره. واحتمل اليهود على رأسهم حُصَيْنُ بن أخطب، فنزل خَيْبَر منهم من نزل وسار آخرون إلى أذرعَات بالشام، وتركوا وراءهم للمسلمين مغنم كثيرة من غلال وسلاح بلغ خمسين درعاً وثلاثمائة وأربعين سيفاً، ثم كان ما خَلَّت اليهودُ من الأرض التي كانوا يملكون خير ما غنم المسلمون. على أن هذه الأرض لم تعتبر أسلاب حرب، ولذلك لم تُقسَم بين المسلمين، بل كانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء. وقد قسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار بعد أن استبقى قسماً خصصت غلته للفقراء والمساكين.

وبذلك أصبح المهاجرون في غنى عن معونة الأنصار، وأصبح لهم مثل ثروتهم. ولم يشترك في القسمة من الأنصار إلا أبو دُجانة وسهل بن حُنَيْف، فقد ذكرا فقراً فأعطاهما محمد كما أعطى المهاجرين. ولم يُسلم من يهود النضير غير رجلين أسلما على أموالها فأحرزاها.

ليس من العسير أن يتقدّر الإنسان قيمة نصر المسلمين وإجلاء بني النضير عن المدينة بعد الذي قدّمنا من تقدير الرسول عليه السلام لما كان يخلقه بقاؤهم من تشجيع عوامل الفتنة، ومن دعوة المنافقين إلى أن يرفعوا رءوسهم كلما أصاب المسلمين شر، ومن التهديد بالحرب الأهلية إذا غزا المسلمين غاز من الأعداء. وفي جلاء بني النضير نزلت سورة الحشر، وفيها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا، وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَصَرُوهُمْ لَيُولُنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ. لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾<sup>(١)</sup> وتجري السورة بعد ذلك بذكر الإيمان وسلطانه، الإيمان بالله وحده لا تعرف النفس الإنسانية التي تعرف قيمتها وكرامتها لغيره سلطاناً: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ. هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾<sup>(٢)</sup>.

كاتب سر النبي ﷺ:

كان كاتب سر النبي، إلى حين إجلاء بني النضير عن المدينة، من اليهود؛ ليتسنى له أن يبعث من الرسائل بالعبرية والسريانية ما يريد. فلما جلا اليهود خاف النبي أن يستعمل في أسراره غير مسلم، فأمر فتعلم زيد بن ثابت من شبان المدينة المسلمين اللغتين المذكورتين، وأصبح كاتب سر النبي في كل شئونه. وزيد بن ثابت هذا هو الذي جمع القرآن في خلافة أبي بكر، وهو الذي عاد فراقب الجمع حين اختلفت القراءات في خلافة عثمان، فوضع مصحف عثمان وأحرقت سائر المصاحف.

اطمأنت المدينة بعد إجلاء بني النضير عنها، فلم يعد المسلمون يخشون المنافقين فيها واعتبط المهاجرون بما أصابوا من أرض اليهود؛ واعتبط الأنصار باستغناء المهاجرين عن معونتهم؛ وتنفسوا جميعاً الصعداء، وكانت فترة سكونية وهدوء وطمأنينة استراح إليها المهاجرون والأنصار جميعاً. وظلوا كذلك، حتى إذا استدار العام منذ أحد ذكر محمد عليه السلام قوله أبي سفيان: «يوم بيوم بدر والموعد العام المقبل»، ودعوته محمداً للقائه بيدر مرة أخرى. وكان العام عام جذب. وكان

(١) سورة الحشر الآيات من ١١ إلى ١٣.

(٢) سورة الحشر من ٢ إلى ٢٤.

أبو سفيان يودّ لو يُوجَّل اللقاء إلى عامٍ آخر، فبعث نعيماً إلى المدينة يقول للمسلمين إن قريشاً جمعت جيشاً لا يقبل لجيش في العرب بمواجهته لتجارهم به حتى تقضى عليهم قضاء لا يعدُّ ما تم بأحد إلى جانبه شيئاً. وبدا للمسلمين أن يجتنبوا الخطر، فأظهر الكثيرون الرغبة عن النهوض والسير لبدر. لكن محمداً غضب لهذا الضعف والتراجع، وصاح بهم مُقسماً أنه ذاهب إلى بدر ولو ذهب وحده.

### بدر الآخرة:

لم يبق بعد هذه الغزوة العظيمة إلا أن يذوب كل تردّد ويزول كل خوف وأن يجعل المسلمون سلاحهم وأن يذهبوا إلى بدر. واستعمل النبي على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، ونزل المسلمون بدرًا ينتظرون قريشاً مستعدين لقاتلها. وخرجت قريش مع أبي سفيان من مكة في أكثر من ألفي رجل. لكن أبا سفيان بدا له أن يرجع بعد مسيرة يومين، فتأدى في الناس: يامعشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصب، وإن عامكم هذا جذب وإني راحع فارجعوا. ورجع الناس. وأقام محمد في جيش المسلمين ينتظرهم ثمانية أيام متتابة أُتجر المسلمون ببدر فيها فربحت تجارتهم، ثم عادوا إلى المدينة مستبشرين بفضل من الله ونعمة. وفي بدر الآخرة هذه نزل قوله تعالى: ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادبروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ \* ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون \* فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون \* يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين \* الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم \* الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل \* فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم \* إنما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين<sup>(١)</sup>.

وكذلك محت غزوة بدر الآخرة أثر أحد محوًا تاماً، ولم يبق لقريش إلا أن تنتظر عاماً آخر، رازحة تحت عار من جنبها لا يقل وطأة عرسعار هزيمتها في بدر الأولى.

### غزوة ذات الرقاع:

وأقام محمد بالمدينة مستريحاً إلى نصر الله إياه، مطمئناً إلى ما عاد للمسلمين من هيبتهم، حذراً دائماً غدره العدو باناً عيونه في كل النواحي. وإنه لذلك إذ اتصل به أن جماعة من غطفان بنجد يجمعون له يريدون حربه، وكانت خطته أن يأخذ عدوه على غرة قبل أن يعد العدة لدفعه. لذلك

(١) سورة آل عمران الآيات من ١٦٨ إلى ١٧٥.

خرج في أربعمائة من رجاله حتى نزل ذات الرقاع حيث اجتمع بنو محارب وبنو ثعلبة من غطفان. فلما رآه طلع عليهم في عدة حربه مهاجماً مساكنهم، تفرقوا تاركين وراءهم نساءهم ومنازلهم. واحتمل المسلمون ما استطاعوا، وعادوا أدراجهم إلى المدينة. على أنهم خافوا رجعة العدو عليهم فتناوبوا الحراسة ليل نهار. وجعل محمد يصلي بهم أثناء ذلك صلاة الخوف؛ فكان جماعة منهم يظنون مستقبلين العدو مخافة لحاقه بهم في حين يصلي الآخرون مع محمد لله ركعتين. ولم يبدُ للعدو أثر وعاد النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة بعد غيابهم خمسة عشر يوماً عنها وهم بظفرهم جد فرحين.

### غزوة دومة الجندل:

وخرج النبي ﷺ بعد قليل من ذلك إلى غزوة أخرى هي غزوة دومة الجندل. ودومة الجندل واحة على حدود ما بين الحجاز والشام، تقع في منتصف الطريق بين البحر الأحمر وخليج فارس. ولم يقابل محمد القبائل التي أراد مقاتلتها هناك والتي كانت تُغير على القوافل؛ لأنها ما لبثت حين سمعت باسمه أن أخذها الفزع وولت مُدْبِرَةً، وتركت للمسلمين ما احتملوا من غنائم. وأنت ترى من هذا التحديد الجغرافي لدومة الجندل مبلغ ما اتسع نفوذ محمد وأصحابه، وما بلغ إليه سلطانهم وخوف شبه الجزيرة إيّاهم، كما ترى كيف كان المسلمون يحتملون المتاعب في غزواتهم، مستهينين بالقيظ والجذب وقلة الماء، مستهينين بالموت نفسه، يحركهم إلى هذا النصر والظفر شيء واحد هو سبب قوتهم المعنوية: الإيمان بالله وحده لا شريك له.

آن لمحمد ﷺ من بعد ذلك أن يطمن بالمدينة عدة أشهر متتابعة، ينتظر فيها موعد قريش لعامه القادم - سنة خمس من الهجرة - ويقوم بأمر ربه، بإتمام التنظيم الاجتماعي للجماعة الإسلامية الناشئة تنظيمياً كان يتناول عدة ألوف يومئذ ليتناول الملايين ومئات الملايين من بعد ذلك، ويقوم بإتمام هذا التنظيم الاجتماعي في دقة وحسن سياسة، يوحى إليه ربه منه ما يوحى، ويُقر هو ما يتفق مع أمر الوحي وتعاليمه، ويضع من تفاصيل ذلك ما كان موضع التقديس من أصحابه يومئذ، وما ظل من بعد ذلك قائماً على الأجيال والدهور، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.